من تراب الطريق (٤٢٢)

مصاب جلل (*) (١)

قد طال شتاء الأحزان ، لا يكاد يمضى يوم إلاّ وأفقد أخًا أو أختًا أو صديقًا أو عزيزًا أو حبيبا .. إن لم يكن بالموت فبالفراق .. وكم من فراق للقلوب أشد وقعًا وإيلامًا من رحيل الأجساد .. ما كدت أجفف الدموع على الراحلين الذين تتابعوا فى العام الأخير ـ حتى فقدت بالأمس أعز الأحباب .. الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر .. دامت محبتى وإياه سنوات كان فيها الأخ الأكبر ، والصديق الحبيب ، الناصح الرفيق ، ملأ بأنس صداقته ومحبته حياتى ، وأشعرنى دوما أن الدنيا بخير ما بقى فيها أمثاله .. كان رحمه الله على عكس ما ظن به المتظننون ، يقف بالمرصاد وبقوة لا تلين فى وجه أى محاولة أيًا كان مصدرها للعبث أو التعديل أو التحوير أو التغيير فى الأصول والثوابت الدينية .. لا يلين أبدًا فى الحق الذى يعتقده ويؤمن به ، ولكنه كإنسان ـ فياض المحبة والدماثة والرفق واللين والتواضع .. ما أرسلت إليه أحدًا مهما صغر شأنه فى أعراف الناس ، إلا استقبله بنفسه فى مكتبه محتفيا به مكرما إياه فى تواضع ورفق ودماثة لم أرها إلاّ فى أولياء الله الصالحين . كان يحدثنى تليفونيا قبل يوم واحد من وفاته فى شأن إحدى القضايا العامة التى يصطنعها من يدعون احتكار الدين ، وتطرق الحديث إلى رغبته الكريمة فى الاطمئنان على ما أجرى لى بشريان

(*) المال ١٨/ ٣/ ٢٠١٠ .

القلب الرئيسى يوم ٢٦/ ٢/ ٢٠١٠ وقيام الخبير الفرنسى جان فاجيديه بتوسيعه ووضع ثلاث دعامات بالشريان معالجة دوائيا .. كان هذا الخبير ذاته هو الذى عالج فى مايو ٢٠٠٧ شرايين الإمام الأكبر الذى روى لى أنه وضع له يومها أربع دعامات بالشرايين التاجية ، وكنت قد عرفت ذلك آنذاك بالصدفة ، حين عرضت بذات المستشفى ـ بعده بيومين ـ على ذات الخبير الفرنسى الذى وضع لى يومها دعامتين بإحدى وصلات الشرايين التاجية . الذى لم أكن أعلمه ، وعرفته عرضًا فى حديثنا التليفونى قبيل وفاته بيوم ، أن الدعامات الأربعة كلفته (١١٨) ألف جنيه . لم تكن الغرابة فى قيمة التكلفة ، فمعروف أنها باهظة ، ولكن الذى أدهشنى أن فضيلة الإمام الأكبر دفع هذا المبلغ من ماله الخاص ، وأبى أن يحمّله على ميزانية الأزهر الشريف الذى يتبوأ مشيخته الكبرى من سنوات ، ويقدم له جليل الخدمات والأعمال . وجدتنى وأنا أسمع هذا الحديث أقارن بمن جعلوا العلاج على نفقة الدولة تجارة يتكسبون بها من المرضى ذوى الحاجة إلى العلاج !

لن تدهش إذن على حزنى الدفين لفراق الصديق الحبيب الإمام الأكبر يرحمه الله ، بيد أن الخسارة فيه ـ وهى فادحة بكل المقاييس ـ لم تقتصر على ألمى الشخصى ، ولا على وجيعة وألم وحزن محبيه ـ وهم كُثرٌ .. ذلك أن الخسارة العامة فى رحيله ـ خسارة فادحة لا تعوّض ، فمن الصعب أن يُملأ بسهولة المكان الذى كان يشغله فى خدمة الدعوة الإسلامية بعامة ، والأزهر الشريف بخاصة . وأنا شاهدٌ على ذلك عَبر سنوات طويلة ، تابعت وشاركت وراقبت رئاسته وإدارته وحواراته وحجته وأدبه وصبره فى مجمع البحوث الإسلامية ، وزاملته متحدثًا فى بعض البرامج الدينية على الهواء ، فكان العالم المتضرع المبتهل واسع العلم جم الأدب والتواضع ، يلقى بما لديه هينًا لينًا لا كِبْر فيه

ولا صلافة ولا عُجْب ولا خيلاء .. تحسبه من العامة من فرط بساطته ولينه وتـواضعه . ومع أنه كان شديدًا فيما يمس الدين أو الكرامة ،إلاّ أننى لم أره قط يضيق أو يعنف بالرأى الآخر مهما خلط أو شرد أو اشتط ، وإنما يعالجه فى رفق ولين ومنطق وحجة دون أن يفقد تواضع وأدب العبارة .. لا يجادل أحدًا إلاّ بالحكمة والموعظة الحسنة .. تراه تجسيدا لقول الحق تبارك وتعالى لنبيه المصطفى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾[النحل:١٢٥].

كان ﷺ يعشق عمله ، ويعود من المطار أو من الأسفار البعيدة مباشرة إلى مكتبه ليستأنف أداء واجباته ، ومن يتابع خط سير وبرنامج عمل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور طنطاوى خلال الأسبوعين الأخيرين ، يدرك مدى الجهود الخارقة التى كان يبذلها الفقيد الجليل ولا يتحملها أشد الرجال قوة وشبابا ، فالأزمة القلبية التى داهمته بمطار الرياض كانت من آثار ما بذله من جهود مضنية على مدار أسبوعين . فمنذ ٢٢ـ٢٥ فبراير شارك فى حضور مناقشات مؤتمر مقاصد الشريعة الإسلامية وقضايا العصر ، ثم ترأس وساهم فى جلسات مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية منذ ٢٧ فبراير ٢٠١٠ ، ثم فى الاحتفال بتكريم الفائزين فى مسابقة المولد النبوى الشريف ، وأشرف معى شخصيا على قضية أوكلها إلىّ ارتأى أنها تمس سواء العمل وإيقاف أى تجرؤ على محررات الأزهر الشريف وانتـظام أدائه ، وجعل يرتب فى الوقت نفسه لانعقاد مجمع البحوث الإسلامية الذى كان مقررًا لانعقاده صباح الخميس ٣/١١ وحالت وفاته دون انعقاده ، ولم يغادر إلى المطار يوم سفره إلى السعودية لتوزيع جوائز الملك فيصل لخدمة الإسلام ، إلاّ بعد أن ألقى محاضرته بجامعة الأزهر على طلبة الدراسات العليا ، ثم أنجز بعض

الأوراق الإدارية قبل أن يتجه إلى المطار ومنه إلى السعودية ، حيث أمضى الساعات الشاقة الأخيرة التى سبقت إصابته بالأزمة القلبية التى داهمته وهو فى طريقه لصعود الطائرة ، ليموت حيث أراد الله تعالى .

من آيات رضا ربه ، أن تصعد روحه الطاهرة إلى بارئها فى الأراضى المقدسة ، وأن يدفن هناك فى البقيع إلى جوار الصحابة الأبرار الذين أحبهم وناضل من أجل الرد على أية إساءة توجه إلى أى منهم .

*****

من تراب الطريق (٤٢٣)

مصاب جلل(*) (٢)

فى أحد الأيام عام ٢٠٠٢ ، وكنت عاكفًا على إنجاز كتاب عالمية الإسلام ، احتجت إلى كتاب السياسة الشرعية لأستاذنا الجليل الشيخ عبد الوهاب خلاف ، ولم يكن فى مكتبتى ، وعجزت تمامًا عن الحصول على نسخة منه مع شدة حاجتى إليه ، فاتصلت تليفونيا بالإمام الأكبر الشيخ طنطاوى ، أرجوه إن كان الكتاب لديه أن يعيرنى إياه متعهدًا برده فى نفس اليوم بعد تصويره . فوعدنى مشكورًا بالبحث عنه ، ولم تمض سوى سويعات حتى فوجئت بهذا الشيخ الجليل وقد بعث إلىَّ بالكتاب الذى يبدو أنه أخرجه من مكتبته الخاصة ، وحتى يرفع بفضله وكرمه أى شبهة لمعنى الإعارة واجبة الرد ، إذ بى أجد على صفحته الأولى بخط الإمام الأكبر «بسم الله الرحمن الرحيم . هدية للسيد الفاضل والصديق العزيز محمد رجائى عطيه . مع خالص الشكر والتقدير» . محمد طنطاوى ٣٠/ ٩/ ٢٠٠٢ . كنت قد نسيت هذه القصة وأنا أكتب هذا الرثاء ، وبعد أن فرغت بالفعل من كتابته ، وأثناء بحثى بمكتبتى عن رسالة التوحيد للإمام محمد عبده استكمالًا لموضوع أكتبه للأهرام فى التوحيد والوحدانية ، وجدت أمامى بمحض الصدفة ـ أو لتدبير أراده الله ـ نسخة كتاب السياسة الشرعية للشيخ عبد الوهاب خلاف ، فترحمت عليه وعلى الإمام محمد سيد طنطاوى الذى تفضل علىّ به من ثمانى سنوات ، وما إن شرعت فى تصفحه حتى وجدت كلمات الفقيد الجليل الراحل التى

(*) المال ١/ ٣/ ٢٠١٠ .

نقلتها إليك ، لتنسال دموعى سيالةً على فضل وكرم وصدق وأخوّة ومحبة وتواضع هذا الإمام الجليل الذى بأدبه الجم أراد أن يعفينى من رد الكتاب ، ثم زاد فأسبغ علىَّ ما أشعر بعميق الامتنان لتفضله علىّ به .

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر ، فإن هذه القصة التى عدت بها إلى السطور التى كنت قد فرغت منها ، ذكرتنى بقصة أخرى من نحو عشر سنوات ، دالّة على جميل أدبه وفيض تواضعه .. حين وسطنى الأستاذ عماد أديب لأنال موافقته على الحديث عن الوصية وأبعادها وما تثيره ، فى برنامجه الشهير «على الهواء» .. تفضل الإمام الأكبر وقبل وساطتى ، وذهبت فى صحبته من باب الأدب والاحترام لمقامه الجليل ، وفى الاستوديو انتفض فضيلته معترضا حين فهم أننى لن أظهر معه فى الحديث ، وعبثًا ذهبت سدًى كافة محاولاتى إقناعه أنه لا يجوز لأحد مهما كان قدره أن يظهر إلى جواره ليتحدث معه فى الإسلام ، فهو شيخ الإسلام ، وإمامه الأكبر ، وليس يليق أن أظهر معه ناهيك عن أن أتحدث فيما سوف يتحدث فيه ويتلقى الأسئلة عنه ، ولكن كل محاولاتى ذهبت سدى ، وحسمها فضيلته بقسم مغلظ أنه لن يظهر ولن يتحدث ما لم أظهر معه وأتحدث إلى جواره . وقد كان له ما أراد .

لقد ترك فضيلة الإمام الأكبر الدكتور طنطاوى ، يرحمه الله ، مكتبة إسلامية كاملة فى التفسير والأحكام الشرعية ، وفى الفقه الميسر، وبنو إسرائيل فى الكتاب والسنة ، والمرأة فى الإسلام ، والحجاب والتصوف ، والرؤية الشرعية للجهاد ، ومعاملات البنوك ، وفى مقدمتها تفسيره الوسيط للقرآن المجيد الذى تفضل بإهدائه لى فى خمسة عشر مجلدًا ، وبلغ من دماثته وأريحيته وهو شيخ الأزهر الشريف ولم أكن حتى قد انتخبت لعضوية مجمع

البحوث الإسلامية ، أن كتب إهداءً بخط يده الكريمة أريد أن أضعه أمام القارئ ليرى كيف كان تواضع ودماثة هذا الإمام الجليل . كتب يقول : «بسم الله الرحمن الرحيم . هدية إلى الأخ الكريم والأستاذ الفاضل محمد رجائى عطيه مع خالص المحبة والمودّة والتقدير . شيخ الأزهر ـ محمد طنطاوى ١٥ من ذى القعدة ١٤١٩ هـ ـ ٣/ ٣/ ١٩٩٩».

انظر معى كيف كان علم وأدب وتواضع وأريحية هذا العالم الجليل ، وحين تفعل فسوف تدرك حجم فجيعتى وألمى وحزنى وشجنى على فراقه .. ومدى خسارتى الشخصية فى فقد هذا الأخ الأكبر والصديق الأعز ، فضلا عن العالِم الجليل .. وإذا كانت مآثره علىّ لا تُحصى ولا تُعد ، فإن لهذا الفقيد الجليل مآثر لا تتسع لذكرها هذه السطور القليلة . أرجو أن أعود إليها يومًا لأروى بعضًا من المواقف النبيلة لهذا الإمام الجليل فى خدمة الإسلام والمسلمين .

نعم يصعب على الأمة ـ تعويض الدكتور طنطاوى ، فى علمه وتواضعه وزهده وحرصه على قضايا أمته الإسلامية ودفاعه عنها وسعيه لإثبات الرأى الشرعى .

عاش حياته ﷺ ، وأنا شاهد على ذلك ، منقطعًا انقطاعا كاملا إلى عمله ، مخلصا له إخلاصًا شاملًا يبذل فيه علمه ووقته وجهده ومشاعره وأحاسيسه ، غيورًا على الدين يناضل من أجل حمايته وقيادة التنوير لرد موجات الظلام عنه ، ويرد عنه وعن رسوله ﷺ وصحابته الأبرار حملات الإساءة التى لم تراع للأديان ولا للرسل حرمةً ولا كرامة ، فياض الاحترام والتبجيل والتوقير لأساتذته الراحلين والباقين ، يحتفل ويحثنا فى المجمع على الاحتفال

معه بمن رحل وكتابة المقالات والدراسات عنه ، ويبذل الاحترام للباقين معه بعضوية بالمجمع ، لا ينسى فى معاملته معهم زمالتهم وأستاذيتهم وأسبقية من سبقه منهم فى التخرج ، ولا يبرر لنفسه مهما اختلف فى الرأى ، أن يحاول فرضه على من يختلف معه حتى ولو كان من تلاميذه ، ولا يتجاوز قط مشاعر أحد فى حواره معه . تتقدم دماثته حاملة مع تواضعه ـ علمه وحجته ، ولا يفارقه صبره على كثرة وسخونة ما يدور من حوارات ويثار من حجج .

يرحم الله تعالى هذا العالم الجليل بواسع رحمته ، فقد كان واسع العلم جم الأدب واللين والرفق والتواضع ، وفى الوقت ذاته شديد القوة فى الحق ، لا يلين فيه ولا يخاتل ولا يقبل الدنية . ربما حدثتك يومًا عن مواقف كثيرة كنت شاهدا عليها رأيت فيها هذا الطود الشامخ أسدًا فى الحق منافحًا عن الدين لا يلين ولا يتراجع ولا يهادن ولا يساوم ، فإذا تركت الإمام وتعاملت مع الإنسان ، رأيت القلب الكبير والأدب الجم ، والتواضع اللافت ، والصوت الضارع المبتهل الذى لم تكن تخطئه أذن فى سماعها لمواعظه وأحاديثه .

رحم الله الشيخ طنطاوى رحمةً واسعةً ، وأنزله فسيح جناته مع الأنبياء والصديقين والشهداء ، وحسن أولئك رفيقا ، وأنزل سبحانه وتعالى سكينته علينا وعلى أسرته ومحبيه وتلاميذه ومريديه الذين ملأوا الآفاق فى كل مكان .

*****